

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/04/25

تاریخ الاستلام: 2025/03/01



الاستشراق: قراءة في قراءات

~~طاهر محمد أمين~~

mohamedamine.tahir@univ-relizane.dz

جامعة أحمد زبانه- غليزان / الجزائر

Orientalism: Readings and Interpretations

✉ TAHIR Mohamed Amine
mohamedamine.tahir@univ-relizane.dz
Relizane University - Algeria

ملخص البحث

أثار الاستشراق ولا يزال يثير جدلاً ساخناً في الأوساط العلمية والأدبية، لم احتواه من مسائل متعدّدة، تحاول فهم هذه الظاهرة فهماً علمياً بعيداً عن التعصّب والولاء، فسلك في ذلك مسالك عدّة في دراسته للتراث العربي وتأثره به، من خلال معرفة ماهيته وماهية لغته وأصحابه، محاولين الوصول إلى الحقيقة والإجابة عن التساؤلات التي طالما شغلت عقولهم وأقامت الجدل بينهم.

وفي هذا المسار المعرفي تشعبت القراءات والرؤى في الصّلات التي ظلت قائمة، فمنهم مفكرون وأدباء عرب بارزون خاضوا في هذا الدّرب وحاولوا إنارة المسائل التي ظلّت عالقة حوله.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق- قراءة- المعرفة- الأثر- التواصل- التراث.

ABSTRACT:

Orientalism remains a subject of intense scholarly debate in both fields of science and humanities, largely due to its engagement with a variety of complex issues that tried to understand and explain this phenomenon through a scientific lens, detached from ideological bias or allegiance. In doing so, orientalist approaches were used to examine Arab heritage which eventually influenced orientalism itself throughout probing the nature of the concept, the language it employs, and the figures that have shaped its discourse, with the ultimate goal of uncovering truths and addressing questions that have long preoccupied intellectuals and generated considerable debate amongst them.

In this intellectual trajectory, a multiplicity of readings and perspectives have emerged. Notable Arab thinkers and writers have actively engaged with these discourses, attempting to illuminate unresolved issues surrounding Orientalism.

Keywords: Orientalism, interpretation, knowledge, impact, heritage

1. مقدمة:

الأدب العربي من المسائل المهمة التي شغلت بال المستشرقين، فحاولوا فهمه ومعرفته والاهتمام به وبالدراسات حوله، والاطلاع على أغواره لأنه بحر عميق يتطلب العدة الكافية لخوض غماره ومسائله المتلاطمة المملوءة بالأسرار والأفكار، ومن بين العدة اللازمة، اللغة العربية، التي هي السر والمفتاح الأول للولوج إلى هذا الحقل المعرفي الصعب.

تعددت الجهود الاستشراقية في حقل الأدب العربي، فمنهم من قام بجمع المخطوطات العربية وفهرستها ومنهم من حققوا العديد من النصوص القديمة بالمقاييس العلمية المتعارف عليها ومنهم من نشر أعمال أدبية ومؤلفات لا تزال تساهم في الوعي والمعرفة (تاريخ الأدب العربي لبروكلمان) ومنهم من ترجم الآلاف من هذه الأعمال إلى اللغة الألمانية ولغات أخرى، فعرفوا الآخر بالحضارة العربية وتراثها ومآثرها، من هنا تستحق هذه الأعمال الاطلاع عليها ودراستها والخوض في القضايا التي أثارها حول الأدب العربي وخاصة الشعري منه والاستفادة من الأفكار التي توصل إليها هؤلاء المستشرقين، لأنها نتاج عمل شاق لفترة زمنية طويلة، ولا يمكن إهمالها أو تجاهلها، فهي تجانب العقل والمنطق والمبدأ العلمي ويكفهم شرفاً أنهم أتقنوا لغة القرآن اتقاناً تاماً وتحكموا بالتعابير اللغوية واستخلصوا نتائجهم البحثية وفق ذلك، فقد قدّم الاستشراق الأماني أسماء نشطة ساهمت بشكل كبير في بعث هذا التراث وإحيائه وبصمت بصمة واضحة وراسخة في تاريخ الأمة العربية لا يمكن لها أن تمحى.

الاستشراق في بدايته حركة ثقافية حيّة، وعندما وجد نفسه في إطار المنطقة الجغرافية المتميزة بتاريخها المثلث بالذكريات والمواجهات والتحديات تذكر فجأة مشاعر الخوف من ثقافة هذه المنطقة وهي ثقافة متكاملة الطموح ذات قيمة عظيمة أنجبت حضارة وقادت أمة، ومن خصائصها الجهاد والتضحية والاستشهاد (النهبان، الاستشراق تعريفه آثاره ومدارسه، 2012، صفحة 13)، فكان ردّة فعل لفكر حضاري مختلف وثقافة جديدة نابعة من بيئة مغايرة تماماً عنه وعن معتقداته وتوجهاته، لذلك وجب على الاستشراق النّظر إلى ما يقابله من تحد صاخر مبني على وحي إلهي منزّه عن الخطأ والريب، ليس مبنياً على فكر إنساني محض وهذا الاختلاف في الشرق في ثقافات متنوعة وحضارات وأديان، والغربي يجد في الشرق صورة مكملّة لذاته، ولهذا فهو لا يرفض الشرق كتراث إنساني وكتجربة حضارية، فالحضارات اللاحقة الغالبة لا تضيق بحضارة سابقة مستسلمة وإنّما يرفض الشرق المتحدي المقاوم المهّدّد للقيم الغربية (النهبان، الاستشراق تعريفه آثاره ومدارسه، 2012)، فبات لازماً على الغربي أن يجد طريقة لمحاولة فهم هذا الأخير الذي أصبح يهدد كيانه الجغرافي وبنائه الفكري وسياسته المسيطرة على العلم بشتى الوسائل ومعتقدده الذي هو أكبر سلاحه في تجسيد أفكاره وطموحاته التوسعية أو التبشيرية أو الأهداف الأخرى المعروفة.

الطرق رغم اختلافها وتشبعها إلا أنّها كانت تصبّ في غاية واحدة، "ولابدّ من التّقرير بأن العلاقة بين المستشرقين والشرق كانت بصورة أساسية تأويلية فإذا وقف المستشرق الباحث أمام حضارة منجزة ثقافية نائية لا تكاد تفهم قلّص الإسهام عن طريق التّرجمة والتّصوير المتعاطف والإدراك الشّيء الداخلي للشّيء الذي يصعب الوصول إليه" (سعيد، الاستشراق المعرفة السلطة الانشاء، 1981)، وهذه هي الطبيعة الإنسانية وخاصة منها التّواقة إلى حب المعرفة والاكتشاف التي تسعى إلى فهم الآخر، وبالأخص إذا ظهر فجأة ويحمل من الاختلافات والتّحديات الفكرية والعلمية والثقافية والاجتماعية واللغوية... وغيرها، من يأمّجّ الفهم والفضول البشري عن طريق وسائل مختلفة للفهم وإزالة الغموض المعرفي.

فأصبح كلّ ينظر على شاكلته، فمن بين القراءات العربية للاستشراق انتقينا بعضا منها بداية بـ:

2. قراءة إدوارد سعيد (1935-2003):

حاول الإستشراق في منهجه التّركيز على هذا المبدأ والخوض في هذا الدّرب الذي يحاول إضعاف الدّات العربية وغرس الأفكار السلبية مما يهيئ إلى أهداف استعمارية واقتصادية وعلمية أخرى، فالفكر السّلي مدعاة للفصل بين الإرث الحضاري والدّات العربية وزع الانهزامية والضعف وعدم الاعتراف بالأعمال العلمية والبحثية التي يقدمها المشاركة "ولذلك كانت الصورة المقدمة عن تلك العوالم نابغة من "فنتازيا" أي توهّمات تخيلية تحركها عقد الإحساس بالتّفوق والإحساس الأبوي المتعالي ووصاية الرجل الأبيض المتحضّر على الشرقي المتخلف البدائي القاصر فكريا وعقليا" (محمد ط..، 2015، صفحة 223). تلك السلطة كما سماها إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" حب تملّك الغير من خلال السّيطرة على فكره وعقله وصولا إلى ذاته وانتهاء بأرضه وما يملك، يعني الهدف هو تجريد الذات الشرقية من ممتلكاتها الفكرية التي نهلتها من معتقدها الديني المبني على أسس صحيحة وعميقة ومتجدّرة في الواقع والمستقبل، أي هذا المعتقد الذي يضمن القوامة الحقيقية للشرقي في فكره ودينه وشخصيته ويحقق له الاعتدال في سلوكه وتصرفاته (وهذا غير مرغوب فيه) ويخلد لغته العربية التي هي ضمان لإرثه وتاريخه ومستقبله.

الجوهر هو الفصل بين هذا الميثاق الغليظ والأساس القويم وبين الدّات الشرقية المجسدة لكل هذه المعاني والمقومات، هذا أصل الخطر في أن يجسد ذلك الشرقي محتوى الوحي الإلهي، فينضج فكريا وعلميا وبهذا الكيان المقابل يقول إدوارد سعيد في هذا الصدد: "فمعرفة الشرقي لأنّها وليدة القوة تخلق بمعنى من المعاني الشرق والشرقي وعالمه، وفي لغة كرومر وبلفور يقدّم الشرقي في صورة شيء يحاكمه المرء (كما في محكمة العدل) شيء يدرسه المرء ويصوره (كم في خطة دراسية) شيء يؤدّبه المرء (كما في مدرسة أو سجن) وشيء يوضحه المرء ويمثّل عليه (كما في دليل وجيز علم الحيوان)، والنقطة المثارة هنا

هي أنّ الشرقي في كل الحالات يحتوي ويمثل بأطر طاغية" (سعيد، الاستشراق المعرفة السلطة الإنشاء، 1981، صفحة 223).

أي فكرة ارتباط المعرفة بالسلطة والمنهجية التي تطبق سواء في دراسة علوم الشرق أو الذات الشرقية في حد ذاتها هي منهجية سلطوية، تحاول تطبيق وفرض منهجا معيناً في ذلك وعلى سبيل المثال المصادر المعتمدة من طرف المستشرقين في التعاطي مع التراث الشرقي بعضها دون مصدر صحيح وبعضها الآخر مشوّه ومحرّف، لكن يساعد المستشرق في رسم منهجه الذي يحقّق له هدفه ويحاول تحطيم عزائمه وتحقيق فكرة "غربي متحضّر قوي ومتفوّق وإلى شرق بل شرقي متخلّف ضعيف ومهزوم" (محمد ط..، خصومة الاستشراق، 2015، صفحة 226).

يقول إدوارد سعيد: "إذا اتّخذنا من أواخر القرن الثامن عشر نقطة لانطلاق محدّدة تحديداً تقريبياً، فإنّ الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلّل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، التعامل معه بإصدار تقارير حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه وتدرّسه والاستقرار فيه وحكمه، وبإيجاز الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبناؤه وامتلاك السيادة عليه" (سعيد، الاستشراق المعرفة السلطة الإنشاء، 1981، صفحة 37)، يتحدّث عن الفكر السلطوي الممارس على الشعوب الشرقية وتحقيق السيادة عليها من خلال الخلفية المعرفية التسلّطية للمؤسسة الاستشراقية التي تضحد كل ما هو فكري شرقي ينماز بالقابلية للدراسة والتّمييز وحتى المنافسة، لأن الحقيقة كامنة في أذهانهم، حيث أنّ المعرفة الشرقية مستمدّة من معتقد لا مستمدّة من فكر إنساني بشري، هذه المنهجية المتسلطة للاستشراق التقليدي على البلاد الشرقية تحكمها أهداف وأطماع كثيرة ومتعدّدة وفي مجالات عدّة.

يميّز الدّارسون ومنهم ادوارد سعيد بين مرحلتين كبيرتين في تاريخ الاستشراق هما:

-مرحلة الاستشراق القديم الذي يعود إلى القرون الوسطى الذي كانت اهتماماته أغلبها عقائدية تبشيرية لمحاولة الفهم الحقيقي للدين الإسلامي ونشر المسيحية في آن واحد، واهتمامات استعمارية توسعية للسيطرة على الدّول الشرّقية بالموازاة مع فهم نمط عيشها وطبيعة تفكيرها واستثمار الاستشراق في هذا المجال الذي يخدم مصالح استعمارية وغيرها.

-مرحلة الاستشراق الحديث الذي يعود إلى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وهي المرحلة التي ينعتها الباحث الأكاديمي والمفكر الفلسطيني، بأنّها مرحلة قد شهدت "نهضة استشراقية" وذلك بالنّظر إلى ما تراكم فيها من فعاليات وأعمال وأعلام في حقل الاهتمام بالشرق وثقافته (محمد ط..، خصومة الاستشراق، 2015، صفحة 21).

كتب إدوارد سعيد يدين حول نشاط الترجمة إلى الألمانية من اللغة العربية في سويسرا بأنه نشاط قليل بالمقارنة مع ما يترجم إلى الإنجليزية والفرنسية عن الألمانية ويرجع أسباب هذا الفتور في الأعمال الترجمة إلى اللغات الأخرى إلى:

*قلّة من يجيدون فهم الأدب العربي الحديث بعمقه اللّغوي والاجتماعي والحضاري والسياسي (بدين، ترجمة الادب العربي الحديث إلى الألمانية في سويسرا في الاستشراق، 1990، الصفحات 216-219).

*هل لدى المترجم المقدرة اللغوية والعمق الحضاري ولو جزئيا بالنسبة للألمانية بحيث يتمكن من إبطال إنتاج الأدب العربي المترجم إلى جمهور القراء الألمان بشكل سائغ وجميل ومفهوم؟.

*المشكلة الثالثة هي قلّة من يجيدون فهم الأدب العربي الحديث بعمقه اللّغوي والاجتماعي والحضاري والسياسي...ومدى قدرة المترجم وما لديه من المقدرة اللّغوية والعمق الحضاري ولو جزئيا بالنسبة للألمانية، بحيث يتمكن من إيصال إنتاج الأدب العربي المترجم إلى جمهور القراء الألمان بشكل سائغ وجميل ومفهوم... دور النّشر التي تهتم بالأدب العربي عددها قليل وعدد الكتب التي تستطيع نشرها محدود جدّا بالإضافة إلى قلّة عدد المشتريين ممّا يرفع تكلفة الكتاب ولا يجعله مرغوبا (بدين، ترجمة الادب العربي الحديث إلى الألمانية في سويسرا في الاستشراق، 1990، صفحة 219).

3. قراءة أنور عبد المالك (1924-2012):

المنهجية الإستشراقية في دراسة الشّرق تغيّرت ولم تعد تلك السيطرة المطلقة في الفكر والذّات والجغرافيا وغيرها، خاصّة بعد فترة الخمسينات من القرن الماضي، لأنّ الشّعوب الشّرقية التي كانت تعيش تحت وطأة الاستعمار الأوروبي تحرّرت جغرافيا فانعكس ذلك على تحرّرها الفكري والثقافي، وأصبح الشّرق يحاول أم يبني فكرا أو منهجا مستقلا يتجاوز مع بناء الدّول والمؤسّسات، فهو لا يملك خيارا غير ذلك مادام استقل وتحرّر في أرضه وفكره، هذه الفكرة ينطلق منها أنور عبد المالك في نقده للاستشراق إلى جانب ثلة من المفكرين العرب أمثال إدوارد سعيد، ومحمد أركون، وهشام جعيط... وغيرهم، ما يسمى بمرحلة الوعي أو كما سمّاه محسن جاسم الموسوي ب: "النّضج الفكري المتكافئ" (الموسوي، 1993، صفحة 52)، فالنّقلة النّوعية التي تحقّقت في مستوى الوعي بالذّات والوجود والتّوق إلى التّحرر اكتست "ذات الأسياد" لها مقومات ومؤهلات مختلفة تماما عن سابقتها، يمكن لها أن تقود وتتحكّم وتتطلّع إلى ما هو أفضل وأحسن وأنجع لبناء نسق ثقافي وعلمي مستقل يرفض جملة الأساليب التي جعلت الفكر الشّرقى مجمدا لفترة طويلة من الزّمن.

يرى أنور عبد المالك أنّ: "الوعي المعرفي ذا الأبعاد والوجوديّة والحضارية قد تأخّر في التّشكيل وكان من المفروض أن يتولّد منذ جيلين على الأقل، لأنّ حركات التّحرر القومي التي انخرطت فيها شعوب

إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والانتصارات التي حققها الاستعمار، أثرت في موازين القوى القديمة لا على الصّعيد العسكري فقط ولكن على الصّعد الوجودية والثقافية والحضارية وكان من الطّبيعي أن يمتد أثر ذلك إلى حقل المعرفة أي إلى حقل الاستشراق" (محمد ط..، خصومة الاستشراق، 2015، صفحة 167).

بهذا أصبح ما يسمى تشكّل الوعي الجديد لدى المستشرقين الأوروبيين مع بداية الفجوة بين الطرفين الشرقي والغربي، وظهور الإيديولوجية الاشتراكية التي دعمت التحرر الفكري والأدبي وحاولت التّهوض بالشّعوب التي كانت مستعمرة وتوعيتها ومحاولة تشكيل نمط جديد للدراسة والتأثر ودراسة الآخر بطريقة مختلفة حتّى تقبله والتّعامل معه بوعي، خاصّة مع ظهور الفلسفات الغربية وانتشارها في الوسط العلمي الشرقي، مثل الواقعية التي تأثر بها أدباء العرب الكبار أمثال نجيب محفوظ وغيره، التي تجسدت في رواياته، إضافة إلى الواقعية الماركسية التي أرادت أن تحلّق في سماء أدب هذه الدّول التي انتهجت وتبنّت الفكر الاشتراكي الشيوعي الذي كان شعاره "الأدب في خدمة السياسة"، فأصبح الشرقي والعربي بالخصوص يتأثر بتيارين مختلفين كلاهما يحاول كسبه إلى صفّه فتجسدت المنهجية الاشتراكية وامتازت بتلك اللّينة وأصبح الحضور المكثّف للموقف الإيديولوجي ومثال ذلك الأدب الجزائري وكتابات طاهر وطار وغيره من الأدباء الذين ساهموا في تبني الفكر الاشتراكي والترويج له.

ومن بين القضايا والمسائل التي تطرّق إليها عبد المالك أدب الرحلة والرحالة الغربيون هواة والمختصّين، الذين حاولوا نقل الآداب والعلوم الشرقية وترجمتها إلى لغاتهم وذكر مثالين لمستشرقين هما: رينه فانلاند وبول نوريسون، اللذان ساهما في نقل صورة العوالم الشرقية، لكنّه تعرّض إلى من ساهم في تدمير نكهة أدب الرحلة، فلم يعد الرحالة يذهب حيث تقوده قدماء ولم يعد للصدفة معنى، حيث أنّ الرحالة الجدد يتنقلون وأعينهم تراقب ساعاتهم، أضف إلى ذلك (دليل المسافر)، الذي يفرض المعلومات ويحدّ الحشوية ولدّة الاكتشاف.

وكثير من الرحالة في العصر الحديث تأثروا بالكتابة الصحفية وكلّ منهم كان يكتب مذكراته بقصد نشرها في إحدى المجلّات، لهذا صدرت العديد من كتب الرحالة التي لا قيمة أدبية لها، لأنّها موضوعها الرحالة نفسه بدل وصف المشاهد الغريبة، ومن بينهم نجد: جالك لوفان دوك، موريس هونريه، آبل مورد... وغيرهم. إضافة إلى الحركة الاستعمارية، حيث أصبح بعض الرحالة وعلى رأسهم الفرنسيين، يشعرون وكأّتهم في بلدانهم، ضف إلى ذلك معظم الرحالة في هذه الفترة قرأوا كتب سابقين ومنهم من اطّلع بصورة وافية على تاريخ وجغرافيا وتقالييد البلدان التي زارها، لهذا وجدت كتب تحوي دراسات علمية خاصّة في التاريخ، زد على ذلك رحلات الحجّاج إلى الأراضي المقدّسة، فكانت ترتدي عادة طابع النظامية والمؤلفات التي كانت تصدر ليست سوى تقارير مليئة بالتّقوى والإشادة بالروحانية. ومن بين هؤلاء المتأبّ نجد: لوغا، كودال، بايني، فاليري، غرانت... وغيرهم.

والمشرق يبدوا بلد التاريخ والأساطير، فلا يسع الرحالة أمام الآثار القديمة إلاّ العود إلى الوراء، ليذكروا بالحضارات التي تعاقبت على المنطقة ومنهم من خصّص فصولاً كاملة للتكلّم على الشعب ولكن على الرّغم من أهمية التاريخ يبدوا أنّ الرحالة في فترة ما بعد الحرب اهتموا بالحاضر وأحداثه، فكلمهم تأثروا بالأحداث وحاولوا تحليل مواقف شعوب الشرق. وهنا نجد كتّابين: الأوّل لرينية فانلاند، الذي كتب رحلة عنوانها "التمزّق الشرقي" والثاني: لبيار لامازيار الذي كتب "أثناء ذهابي إلى سورية".

كما تطرّق إلى جدلية الذاتية، التي يعني بها طبقات المجتمع وطبقياته ويمكن تسميتها (الأنّا) والدائرة الخارجية التي تمثّل الآخر من أمم وثقافات أخرى، فنجدته متأثر بالفكر الماركسي والأيديولوجية الشيوعية في الأدب، الذي يتماشى مع الفكر السياسي ويسخره لخدمة أفكاره وتوجهاته تحت مسمى "الجدلية الاجتماعية"، حيث يمثّل هذا المصطلح القالب التحليلي الذي يحتوي علّة مضمون موقفه من الاستشراق.

يرى عبد المالك أنّ هناك متغيّرات تاريخية وسياسية واجتماعية أدّت إلى إعادة النظر للاستشراق وإعادة تقييم مفهومه وأدواته وأساليبه ومناهجه. وتتمثّل هذه المتغيّرات في "التأثير الحاسم للعامل السياسي الذي هو انتصارات حركات التحرّر القومي المتنوعة على النّطاق العالمي" (محمد ط..، خصومة الاستشراق، 2015، صفحة 171).

ومن هنا نقرأ أو نفسّر رؤية عبد المالك من خلال الصورة المرآوية التي يقدّمها الغرب لنفسه عن الشرق أوّلاً، ثمّ يفرضها على الشرق ذاته ثانياً، فهي صورة غير الصورة، صورة مغلوطة غير حقيقية أنتجها الآخر وقدمها للشرقي لأنّه أنتجها من رؤيته هو للشرق -وعلى سبيل الذكر لا الحصر- فالاستشراق يتجاهل الانتاج العلمي الجادّ للباحثين المعاصرين في البلدان الشرقيّة، بل يصفونهم بعديي القيمة وبالتخلّف.

كما تقتصر الدراسات الاستشراقية في باب التصوف على دراسة الماضي بهدف الفهم التاريخي للأفكار والمصطلحات والمدارس والاتّجاهات الصوفية ونشأتها وتطورها، دون التطرّق إلى الأعمال المعاصرة في الأدب والشعر وحتّى الفكر الصوفي.

4. قراءة مالك بن نبي (1905-1973):

نظرته في التطبيقية أو طبقات المستشرقين مادحين ومعتدلين ومتهمّجين حاقدين على الحضارة الإسلامية والعربية وجميع جوانب الفكر والأدب والثقافة... وغيرها. يأترون على الفكر الغربي بجملة من السّموم الفكرية المنقولة بشكل خاطئ متعمد يحجب الحقيقة ويتعدى الموضوعية وعلمية الدراسة الاستشراقية وينفي فعل التأثير بالحضارة الشرقية او بما يسمى راهنا حوار الحضارات أو المثاقفة، فهم

يصورون ويرسمون فكرا مزيجا بين السياسة والأيدولوجيا. فكرا تأثيريا شيد مع مرور الزمن وتوالي الدراسات وضمن مسار علمي متراكم لحقب زمنية مختلفة حسب اختلاف السياسات والأوضاع في العوالم الشرقية.

وحتى الطبقة المادحة في ظاهرها رونق وجمال وفي باطنها مديح له أثر سيء على العربي والمسلم، ما يلبث أن يعيش في كنف الماضي بشعاراته وخطاباته وصوره ويبقى معلقا به ويحلم فقط بالمستقبل، لكن لا يعمل لأجله ولا لأجل تحقيقه وهذا الركود الفكري والإبداع غاية وأهداف ممنهجة تسعى لقتل الإبداع والتقدم الحضاري الشرقي فنجد للمادحين الأثر الملموس، الذي يمكننا تصوره بقدر ما تدرك أنه لم يجد في نفوسنا أي استعداد لرد الفعل، حيث هناك في بادئ الأمر مبررا للدفاع الذي فقد دواه وكأنما أصبح معطلا لهذا السبب في نفوسنا" (العقبى، 2005، صفحة 93).

لم يعتن مالك بن نبي بالاستشراق كفكرة، بل أراد أن يدرس العامل النفسي لحملة فكر الاستشراق وهم يكتبون، حيث يقول: "إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون في الفكر الاسلامي وعن الحضارة الاسلامية" وذلك قبل التعرف في أعمالهم وتقييمها والخوض في الأفكار وميادين البحث التي تطرقها إليها ومناهج بحثهم.

قام بعد ذلك بتصنيفهم إلى طبقات في صنفين:

- من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل جرير دوريباك والقديس توماس الأكويني، وطبقة المحدثين مثل كاره دوقو وجولد تسهير.

- من حيث الاتجاه العام: نحو الاسلام والمسلمين لكتاباتهم، فهناك طبقة المادحين للحضارة الاسلامية وطبقة المنتقدين لها ولمسمعتها.

كما نراه لا يقف موقفا سلبيا كلياً بل يقرّ بموقفه من خلال أعمال وانتاجات بعض المستشرقين الذين احترمو العلمية والموضوعية في أبحاثهم وتأثرهم بالشرق وعلومه وآدابه، فهو انتاج "لا يجوز نكران قيمته، بل نراه أحيانا يستحق كلّ التقدير لما يتّسم به - في بعض أصنافه ما خلفه سيديو أو جوستاف لوبون أو آسين بلاثيوس- من إضافة إلى طابعه العلمي، بطابع أخلاقي ممتاز لا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف الشهود نعرف قيمتهم كعلماء" (نبي، 1969، صفحة 25).

وتحدّث عن المرحلة اللاحقة من الزمن الحاضر، الذي أصبح العالم الشرقي يعاني الصدمة التي أصابته بها الثقافة الغربية ويعاني بسببها من مركّب النقص والانهمامية في جميع النواحي وخاصة الثقافية والفكرية، وتثبطه على الإبداع والتطور والتحضّر.

5. قراءة محمد أركون (1928-2010):

مجلة: لغة - كلام، المجلد 11/ العدد: 02 - جوان (2025)

اعتقد أركون أنّ معظم الخطابات الاستشراقية تركز بشكل كبير علة فقه اللغة ودعم المناهج الفيلولوجية في التأثير بالتراث الشرقي والنظام الفكري الشرقي وذلك من خلال بعض الأعمال والأبحاث المعاصرة التي أنتجتها المدارس الاستشراقية وعلى رأسها المدرسة، حيث علّق بقوله: "في الواقع إن جميع المساهمات الواردة في الكتب الجماعية الثلاثة تخضع لمنهجية واحدة: هي المنهجية التاريخية الفيلولوجية التي سيطرت على الاستشراق الكلاسيكي طيلة القرن التاسع عشر وحتى وقت قريب، فاستمرارية الإشكاليات التاريخية والمجريات الفيلولوجية والفضول المعرفي الهامشي، كلها أشياء تسيطر على هذه الدراسات" (محمد أ.، الفكر الأصولي وستحالة التأصيل، 1999، صفحة 46) ومع هذا لا يمكن الجزم بأنّ كل المدارس الاستشراقية تسير على نفس المنهجية البحثية في التأثير بالدراسات الشرقية، فمثلا المدرسة الألمانية رغم تبنيها المنهج الفيلولوجي والتاريخي إلا أنها لم تنحصر في أيديولوجيات ولا سياسات غربية، فمستشرقوها كانوا بعيدين عن هذا كلّ وظلّوا أوفياء لذلك من يوهان ياكوب رايسكه إلى أنا ماري شميل ورياناتا ياكوبي.

فهو يرى أن الفكر الاستشراقي لم يتحرر بعد من المنهجية الكلاسيكية التي استخدمها منذ القرن التاسع عشر ولا يزال وفيها لها في الدراسات المعاصرة ومن يخرج من ثوبها بقوله: "إنّ كل العلم الاستشراقي كان محصورا بالتأريخ للوقائع الخام للتراث أو استعادتها من طريق استخدام المنهجية الفيلولوجية من نحو وصرف ومعاجم ودراسة تركيب الجمل... إلخ، وكان محصورا بالمنهجية التاريخية التقليدية التي سادت في القرن التاسع عشر والتي كانت تحصر عملها بسرد الوقائع كما هي الواحدة بعد الأخرى أو الكشف عنها والتحقق منها" (محمد أ.، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، 1999، الصفحات 30-31).

ولاحظ أركون أن زملاءهم في كليات التاريخ والمهتمين بدراسة المجتمعات الغربية، استفادوا كثيرا من الفتوحات المعرفية لمنهجيات العلوم الإنسانية، بينما المستشرقون لم يكلفوا أنفسهم عناء تطوير أدوات منهجية في بحوثهم، فيرى أركون أنه يقود الصراع "ضد مواقف المستشرقين الذين يرفضون الدخول في أي مناقشة إبستمولوجية مع زملائهم الغربيين المشتغلين في الاختصاصات الأخرى أو حتى فيما بينهم بحجة أن المسلمين الذين ينتقدونهم يمارسون ذلك من موقع المماحكة الجدالية فقط وليس من موقع العلم" (أركون، تاريخية الفكر العربي الاسلامي، 1998، صفحة 246) وهذا تقصير منهم في خاصّة وأنّ الكثير منهم يدّعي العلمية والموضوعية في الدراسات التي تعتمد فقط على المنهجية التي دأبوا عليها منذ فترة طويلة من البحث.

يرى محمد أركون أن البحث الاستشراقي لا يزال يهما النقد الإبستمولوجي المعاصر، لأنّه لا يأخذ بعين الاعتبار ما حققه الحقل المعرفي والأبحاث في مجال العلوم الإنسانية، فهي في نظره سحاب عابر يحاكي الابتكارات الواهية، فما يعيبه أركون "على الفيلولوجيا هو إهمالها للأساطير والتصورات الخيالية،

وهي بذلك تفتقر إلى حد كبير إلى المضامين الحقيقية لكل وجود اجتماعي" (كيحل، 2014، صفحة 70)، فالتراث الأدبي العربي زاهر بالخصائص الفنية المتأثر بالأجناس الأدبية القديمة وحتى المعاصر منه، على غرار الأسطورة التي نجدها جليّة في أعمال وأشعار بدر شاكر السيّاب والملحمة وغيرها من الأجناس الكلاسيكية.

ويرى أركون في نقده الخطاب الاستشراقي إلى أنّ: "الاستشراق الأكاديمي الذي احتل السّاحة منذ القرن التاسع عشر لم يتراجع فقط في مجال البحث والتعليم، وإنما حطوا من قيمته وراحوا يعتبرونه ماضوياً، تقليدياً في النزعة الثقافية والوصفية والنضالية والتاريخية والفيلولوجية" (أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، 1999، صفحة 296)؛ فهم لا يعيرون أهمية للدراسات والمقاربات المنهجية، فهم يهتمون فقط بدراسة "الوقائع المادية المحسوسة بالمعنى الذي يقصدونه وضمن الإطار المعرفي الذي يختارونه" (أركون، العلمنة والدين "الاسلام المسيحية والغرب"، 1996، صفحة 38).

ومن دواعي عزوف المستشرقين النبش المعمق في جذور التراث العربي الإسلامي إلى أنّهم "لا يبالون إطلاقاً بمصير المسلمين والمجتمعات الإسلامية عندما يدرسون الإسلام ويكتبون عنه، فهذه ليست مشكلتهم، كما يقولون صراحة حتى يومنا هذا، فعلى كاهل المسلمين أنفسهم تقع مهمة التجديد وزحزحة الحدود التقليدية لفكرهم ومعرفتهم" (أركون، الفكر الأصولي استحالة التأصيل، 1999، صفحة 119).

ومن بين القضايا النقدية التي تناولها أركون نجد:

- نقد المنهج الوصفي التاريخي في دراسة التراث في أعمال المستشرقين، فانتقد المبالغة في السرد التاريخي الوصفي عند جوزيف فان إيس.

- نقد التوحيد الأيديولوجي الديني في توحيد الموضوعات التي تحت مجهر الدراسات الاستشراقية. وهذه منهجية كلاسيكية دأب عليها مستشرقون كثر إلى أن اتت الدراسات المعاصرة، التي تناولت المجتمع الأوروبي في العهد الوسيط – وإن كانت شحيحة.

- نقد العامل الاقتصادي والاجتماعي الذي يستخدمه المستشرقون في تفسير التراث، حيث وصفه بالمحدود أخذ نموذج المستشرق رودنسون وتحدث عن نزعة التخصص الدقيق وتركيز كلّ مستشرق في مجال معين وهذا يجرّئ الحقيقة.

ذلك وتأسيساً على ما سبق، نتوصل إلى جملة من القضايا التي أثارها الخطاب الفكري الأركوني بتداخله مع الخطاب الاستشراقي الكلاسيكي. فأركون رغم نقده اللاذع للمناهج التي استخدمها الاستشراق الكلاسيكي إلا أنه اعتبرها ضرورية في بداية التأسيس للدراسة العلمية للتراث الإسلامي، وهذا أول خيط منهجي يصل خطابه بالخطاب الاستشراقي، فينبغي حسب أركون: "أن نعلم أن جميع المعارف والمعلومات المتبحرة في العلم وتراكمها لا تؤدي بالضرورة إلى توليد فكر نقدي أو إبداعي، أو

تحريري، فإن تجميع المعلومات يشكل مرحلة لا بد منها، أي المرحلة الأولى من الدراسات العلمية، ولكن لا ينبغي الاكتفاء بها كما يفعل المستشرقون التقليديون أو الكلاسيكيون، وإنما ينبغي تجاوزها إلى منهجية التفكيك والتعرية الأركيولوجية والنقد الجذري لأنظمة الفكر التراثي" (محمد أ. الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، 1999، صفحة 119)، فالعيب في المناهج التي يستخدمها المستشرقون في قراءة التراث العربي ولا تؤدّي دراسات نقدية فعلية ولا تحقّق الأهداف العلمية الحقيقية.

ومن هنا نريد أن نقف عند أبرز المصطلحات التي وظّفها المفكرون الذين تعرّضنا لهم في هذا البحث وتدلّ على قراءاتهم للاستشراق ونظرتهم له وهي كالآتي:

إدوارد سعيد	أنور عبد المالك	مالك بن نبي	محمد أركون
-السلطوية. -الشرقة (المعرفة الغربية للشرق). -الخارجية (الوصاية على الشرق).	-الجدلية الاجتماعية. -الخصوصية (وهو التفاعل داخل الجدلية الاجتماعية).	-الطباقية.	-نقد العقل الاسلامي. - الحقيقة والخيال.

6. خاتمة:

*رکّز إدوارد سعيد على فكرة السلطوية والمركزية الغربية في النظرة إلى الشرق ودراسة أعماله، فهو يرى بعين الدونية إلى العوالم الشرقية ويحاول بسط فكره وسياسته وأيديولوجيات تسعى إلى الهيمنة والسلطة عليه.

*استعمل إدوارد مصطلحات تعكس موقفه الحقيقي من الاستشراق مثل: الأبوية، التعالي، الرجل الأبيض المتحضّر، السلب، الاستعمار، طمس المعاني والمقوّمات، الطاغية... وغيرها، تعبّر فعلاً رؤية الناقمة الرافضة الحذرة من كل أشكال التأثير بالشرق وكل ما يقدّمه المستشرقون من أعمال أو دراسات حول الشرق.

*لم تعد برأي أركون المناهج الفيلولوجية اللغوية التي استخدمها المستشرقون تفي بالغرض العلمي في دراسة التراث الإسلامي، لذلك من الضروري أن يفتح الخطاب الاستشراقي على مناهج العلوم الإنسانية المعاصرة، ليكشف عن طبيعة النظام المعرفي الذي خضع له هذا التراث الإنساني.

*إنّ الانتقادات التي قدمها أركون للخطاب الاستشراقي لا تعني أنّه يقود معركة أيديولوجية ضده، كما فعل بعض المفكرين العرب، بل إنّ همّه معرفي محض.

*عدم وضوح وثبات تعددية المناهج التي دعا أركون إلى استخدامها في دراسة التراث والفكر الإسلامي في ظلّ متغيرات التعليم المعاصرة التي تدعو إلى التخصص العلمي ليتمكن الباحثون من المناهج العلمية.

*ينتقد أنور عبد المالك الغرب الرأسمالي ويرفض أفكاره المركزية وفي نفس الوقت يعتبر التوجّه الاشتراكي الشيوعي النموذج المثالي للاستشراق.

*طبقا لتصوّر أنور عبد المالك فالاستشراق يقدّم الشّرق بالصورة الذهنية المتوهّمة في الذات الغربية والتي تهدف إلى الهيمنة الغربية على الشّرق وبالتالي فالناظر هو الغرب والمنظور إليه هو الشرق.

*بدا مالك بن نبي مضطربا في موقفه من الاستشراق، فنجدته تارة ناقما رافضا كل ما يقدمه المستشرقون المحكومين بأيدولوجيات غربية وتارة أخرى مقراّ بفضل بعضهم على التراث فهرسة وجمعا وتصنيفا وانتاجا.

*صنّف بن نبي المستشرقين أصنافا وفق إطار زمني كرونولوجي ومن حيث التوجّه الفكري والآراء الفكرية والأعمال الإبداعية.

*أقرّ بن نبي بضرورة معرفة المستشرقين المعرفة الكاملة بإحدى اللّغات الشرقية وآدابها، كما اعتبر الاستشراق ظاهرة ثقافية في أعقاب ذلك الصدام العنيف بين الحضارتين المختلفتين، الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية الغربية.

*حصّص بن نبي جزءا مهمّا في حديثه عن الاستشراق إلى فئة المادحين من المستشرقين للحضارة الإسلامية واعتبرهم أكثر خطرا وتأثيرا على الوسط الفكري، حيث يرّسخ فيه روح الانهيار بالحضارة الغربية وبذلك يصبح تابعا مقلّدا.

*تحدث أركون عن المنهج التاريخي الثابت في الدراسات الاستشراقية وأنّ المستشرقين لم يخرجوا من هذا الوعاء المنهجي، فهنا لا يمكن التعميم حيث نجد ايفالد فاجنر المستشرق الألماني -على سبيل المثال لا الحصر- كتب كتاب بعنوان "أسس الشّعر العربي الكلاسيكي" وحاول أن يستعمل المناهج المعاصرة في هذه الدراسة، كما سارت ياكوبي على الدّرب وأعادت قراءة الشّعر الجاهلي بمناهج نقدية معاصرة في كتاب بعنوان "جهود استشراقية في قراءة الشعر العربي القديم".

*الاستشراق العلمي أفاد الحضارة العربية في مختلف علومها (تحقيق المخطوط، الفهرسة، النصوص القديمة، قواميسه اللغوية والعلمية ودورياته العلمية، اسهامات بحثية... إلخ).

*ضبابية تعددية المناهج التي دعا أركون إلى استخدامها في دراسة التراث والفكر الإسلامي في ظلّ متغيرات التعليم المعاصرة التي تدعو إلى التخصص العلمي ليتمكن الباحثون من المناهج العلمية.

مراجع البحث

- محمد فاروق النبهان، الاستشراق، تعريفه آثاره ومدارسه، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية، الرباط، المملكة المغربية، 2012.
- إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، 1981.
- محمد طاع الله، خصومة الاستشراق الخطابات والرهانات، منشورات مجمع الأطرش للكتاب المختصر، القيروان، تونس، ط1، 2015.
- إدوارد بدين، ترجمة الأدب العربي الحديث إلى الألمانية في سويسرا في الاستشراق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ع4، شباط 1990.
- محسن جاسم الموسوي، الإستشراق في الفكر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1993.
- حسن موسى محمد العقبي، موقف بن نبي من القضايا الفكرية المعاصرة، رسالة ماجستير، 2005.
- مالك بن نبي، انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الحديث، دار الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1969.
- محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة وتعليق هاشم صالح (بيروت: دار الساق، 1999).
- محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، ط3 (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1998).
- مصطفى كيحل، «الخطاب الاستشراقي بين إرادة الهيمنة وأفق علوم الإنسان»، مجلة الدراسات الفلسفية، العدد 2 (حزيران/يونيو 2014).
- محمد أركون، العلمنة والدين: الإسلام المسيحية والغرب، ترجمة هاشم صالح، ط3 (بيروت: دار الساق، 1996).